عابر استثنائي

محمود عبد الوهاب

من بين ورقتيْ شجيْرة الظلّ التي كانت تحملها على ذراعيها المعقودتين، رأتْه. كان يرفع رأسه أحياناً ويديره بتثاقل صوبَ المارة والمباني المحيطة بجانبي الشارع، وينصت ـ وهو في مشيته الواهنة ـ إلى ضجيج التلاميذ من وراء سياج المدرسة. وعندما عَبَر الشارع إلى الرصيف الآخر التفتتْ نحوه، فوجدته يدبّ مطرقاً كأنه يحسب خطواته بانتظام، وكأنّ شيئاً ما في داخله يتكسر. كان يجرجر قدميه مثل حيوان جريح.

في بيتها، وضعتْ شجيرةَ الظلّ قرب النافذة وباعدتْ ما بين شقَّتَي الستارة البنفسجية، فانسلّ ضوءُ الشمس فضيّاً عبر مخمل الستارة إلى الصالة حيث سقطت ألسنته على شرشف المائدة وثلاثة صحون بيض صقيلة، وعلى ملعقة وشوكة موضوعتين على شكل متقاطع في صحن بلوريّ شفاف. وعلى جانبٍ من كتف زوجها بقميصه الأبيض الأنيق وربطة عنقه نصف المفتوحة التوى شيء مقوّس من الضوء كأنه أفعى. قالت: هل نشيخ نحن أيضاً؟

رفع رأسه وقال وهو يمضغ طعامه:

ـ ليس الآن.

ـ لكن، هل نشيخ حقاً؟

تفحص وجهها قليلاً ثم عاد يمضغ طعامه بلامبالاة. قالت: لقد رأيته هذا الصباح.

ـ مَنْ؟

ـ كان كهلاً كئيباً.

هزّ رأسه بينما واصلت هي كلامها: لماذا كنت أحس أنه مختلف؟ كان يقطع الشارع وكأنه يودّع مدينته. هل تعتقد أنه مريض؟

ـ مَنْ؟

ـ الكهل الذي رأيتُه هذا الصباح.

ـ مَنْ يدري؟ لكلٍّ منا مشاكله.

ـ لكنه كهل ليس باستطاعته أن يتحمل مرضه وحده.

ـ إنك تسرفين في الخيال يا عزيزتي.

أجابها وهو يلتقط قطعة اللحم بشوكته ثم عاد إلى تناول طعامه بعصبية ظاهرة.وعندما انتهى من الطبق الذي أمامه أبعده عنه وأسند ظهره إلى مؤخرة كرسيّه، فانزلقت بقعة الضوء من على صدره وسقطت على أرض الصالة بين قدميه. قال لها: «اسمعي يا عزيزتي، لا بدّ لنا من إحدى النهايتين: إما أن نموت صغاراً وإما أن نعيش حتى نشيخ. هل بإمكاننا أن نفعل غير ذلك؟»

كانت واجمة لا تصغي اليه، وقد أسندتْ خدّها إلى راحة يدها. ولأول مرة لمح زوجُها خيوطاً من الشيب في مقدمة شعرها. أزاح كرسيّه جانباً، ثم قام. ومن مكانه، إزاء المغسلة، قال لها بصوتٍ عالٍ، وفمُهُ مليء برغوة معجون الأسنان: هل كان تعساً إلى هذا الحدّ؟

ـ إنه وحيد، مهموم، يشيخ في كل لحظة.

لم يجب زوجها بشيء. كان قد ترك الحنفية سائبةً يرتطم ماؤها بحوض المغسلة فيُحدثُ أصواتاً مختنقة.

البصرة

بخور

ابتسام عبد الله

إنها الرائحة نفسها، زكيّةً ومكثّفةَ العطر وثقيلة الأثر منتشرةً في أرجاء الغرفة الموصدة النوافذِ والبابِ، تتغلغل في أعماق الروح وتتشبّع بها النفسُ، وتدفعني في كل مرة إلى الجلوس في سكون مأخوذاً بأجوائها وبالسحر الذي تُحْدِثه وتخلّفه في المكان. رائحة شرقيّة حادّة تنبعث من عيدان رفيعة، قصيرة، بنيّة غامقة أو مائلة إلى السواد، تسري وتُشيع في المكان ــ مع دخانها المتماوج الرفيع ـ جواً من الغموض، فتختلط الأشياءُ في ذهني وتدفعني إلى الصمت التامّ والتأمّل.

هل قلت «الصمت التامّ»؟ لكنه ليس التعبير المناسب، فللصمت لغةٌ أيضاً، لغة ساكنة، تصطخب في ثنايا الإنسان وتحمل في تدفّقها قوةَ سريانِ المياه في الأنهار العميقة المنحدرة من أعالي الجبال، وقوّةَ عاصفةٍ لا تَذَر في هبوبها ولا تبقي.

في داخلي تسري مثل هذه اللغة، خافتةً جداً وقويةً جداً، لايسمعها مَنْ يقفمعلى مقربة مني، ولكنها تضجّ على الدوام وتتفاعل وتتصارع فيها الكلماتُ دون توقّف. تهدر صبحاً ومساءً وجزءاً كبيراً من الليل مثلَ نهرٍ عظيم، وتشطرني إلى مئات الأفكار. وعندما تهجع الأشتاتُ المتناثرة وتحاول أن تلتمّ في الهزيع الأخير من الليل أو عند ساعة الفجر، يعاودني الحلمُ الذي يتكرّر في منامي، عندما يبزغ أمامي بغتةً نورٌ عظيم يقودني إلى مكان مهجور، وصوتٌ عميق ينطلق من الفراغ